



تجليات وباء الطاعون في رسالة النبأ عن الوباء لابن الوردي
دراسة فنية موضوعية

The Plague Epidemic Manifestations in
'The Prophecy of the Plague' by Ibn al-Wardi:
An Objective Artistic Study

فريال بن جدو

جامعة أبو قاسم سعد الله (الجزائر)، feriel.bendjeddou@univ-alger2.dz

ملخص:

لقد عُرف عن الأدب مواكبته لأحداث ومجريات العصر، حيث عدّ على إثرها الأديب لسان حال مجتمعه يصدق أدبه بما يعجّ به مجتمعه من متغيرات ومستجدات، وقد احتل الوباء حيزًا لا يستهان به في الأدب العربي قديما وحديثا، وبرع على ضوء ذلك الأدباء في وصف الأحوال التي تلحق بالناس وتصوير المعاناة الإنسانية في مواجهة الموت في قالب أدبي. ولعل يأتي في مقدمة هؤلاء زين الدين ابن الوردي حيث حاول أن يرسم لنا من خلال رسالته "النبأ عن الوباء" أحوال الناس في حوض المتوسط على ضوء الطاعون الأسود الذي انتشر في تلك الفترة، لذا تسعى هذه الورقة البحثية إلى الخوض في معالم هذه الرسالة محاولين تبين الرؤية الأدبية التي أسقطها ابن الوردي في تصويره لهذا الوباء على نحو في بلاغي فريد.

كلمات مفتاحية: وباء الطاعون؛ ابن الوردي؛ النبأ عن الوباء؛ الأدب؛ المعاناة؛ النثر.

Abstract:

Literature has been known to keep pace with the events and developments of the era, as a result of which the writer became the

mouthpiece of his society, his literature resounding with the changes and developments that his society is full of, and the epidemic occupied a significant space in Arab literature, ancient and modern, and in light of that, writers excelled in describing the horrors that Affecting people and portraying human suffering in the face of death in a literary form. Perhaps at the forefront of these comes Zain al-Din Ibn al-Wardi, as he tried to depict for us, through his message "The Prophet about the Epidemic," the conditions of people in the Mediterranean Basin in light of the black plague that spread in that period. Therefore, this research paper seeks to delve into the features of this message, trying to clarify The literary vision projected by Ibn al-Wardi in his depiction of this epidemic in a unique artistic and rhetorical manner.

Keywords: Plague epidemic; Ibn al-Wardi; The Prophecy of the Epidemic; literature; suffering; Prose

مقدمة:

لا يغيب على ذهن حصيف أنّ الأدب رديف المجتمع وملازمه ملازمة النديم للنديم، فهو المعين الذي يستقي منه الأديب موضوعاته ومعانيه، ليأتي على إثرها عمله الأدبي محاكي لما ينضح به مجتمعه من الأحداث الجارية، والمصائب، والكوارث والأوبئة، ولعل في مقدمة هؤلاء نجد الطاعون، فقد نال هذا الأخير حظاً وافراً من الاهتمام لدى الأدباء والشعراء، نظراً لما خلفه هذا الفناء العظيم كما سمّاه ابن كثير من الخسائر في الدول الإسلامية كالشام، والحجاز، ومصر، والعراق.

ولعل الرسالة التي كتبها ابن الوردي¹ الموسومة "برسالة النبا عن الوباء" سنة 749هـ كانت من أهم الرسائل التي صوّرت لنا آثار هذا الوباء ومعاناة المسلمين إثر هذا الاجتياح الذي ألمّ بمدينة حلب، والذي عايشه الأديب والمؤرخ قبل أن يفتك به كحال العديد من الأدباء الذين عايشوا هذا الوباء وغيره من الأوبئة، والكوارث الطبيعية التي حلّت بالدول الإسلامية، ومنه جاءت دراساتنا للوقوف عند عتبات التصوير الفني لوباء الطاعون في رسالة ابن الوردي، بهدف رصد رؤية أديبنا، واستجلاء الرؤية الجمالية التي بثها في ثنايا رسالته، لنرصد حينها كيفية تعامل الأدباء والشعراء مع الأوبئة والكوارث الطبيعية التي عصفت بهم، والهيئة التي صوّرها بها هؤلاء في أعمالهم الأدبية.

2. الطاعون في الأدب العربي

لقد واكب الأدب منذ القديم الكوارث والمصائب التي حلّت بالإنسان، باعتباره مرآة عاكسة لما يحدث في المجتمع، حيث يسعى إلى نقلها وتصويرها في قالب أدبي فني،

لذا لطالما عدّ الشاعر أو الأديب الناقل الأمين لما يستجد من الأحداث في شعرهم وأدبهم، ولعلنا إذا طالعنا العصور الأدبية بدءاً بالعصر الجاهلي لتبدى لنا بشكل جلي، وواضح المعالم ذلك التصوير الفني للأوبئة بشكل عام، ولوباء الطاعون بشكل خاص لاسيما وأنّ هذا الوباء لم يكن وليد عصر ابن الوردي فحسب، وإنّما عرفه العرب منذ العصر الجاهلي، وقد أسهبت كتب التراجم وتاريخ الأدب العربي في الحديث عن أمر هذا الوباء، ومن أمثلة ذلك ما حلّ بأبي ذؤيب الهذلي الذي فتك طاعون عمواس في العامين 638هـ- 639هـ بأولاده الخمسة في سنة واحدة، فنظم في سبيل ذلك قصيدة عينية رثائية لوصف هول المصيبة التي ألمّت به مطلعها:

«أَمِنَ الْمَنُونِ وَرِيهَا تَتَوَجَّعُ * وَالْدَهْرُ لَيْسَ بِمُعْتَبٍ مِنْ يَجْرَعُ

قَالَتْ أُمِيمَةٌ مَا لِجِسْمِكَ شَاحِبًا * مُنْذُ ابْتَدَلَتْ وَمِثْلُ مَالِكَ يَنْفَعُ»²

وبالتالي، فقد حرص المبدع في كلّ مرّة رغم المرارة والأسى التي يحملها الموقف على نقل المشهد الحزين، وكذا تصوير صراع الإنسان ومعاناته مع الوباء، ومن أمثلة ذلك ما أورده امرؤ القيس حين رصد لنا معاناته مع المرض:

«فَلَوْ أَنَّهَا نَفْسٌ تَمُوتُ جَمِيعَةً * وَلَكِنَّهَا نَفْسٌ تُسَاقِطُ أَنْفُسًا

وَبَدِلَتْ قَرَحًا دَامِيًا بَعْدَ صِحَّةٍ * قِيَا لِكَ مِنْ نُعَى تَحَوَّلَنْ أَبُوسًا»³

والمطالع لكتب الأدب والتراجم بصفة خاصة يلحظ مجازاة الأديب لأمر عصره، لاسيما حين يتعلّق الأمر بالكوارث الطبيعية والأوبئة التي تطال المكان في تلك الفترة، كما هو الحال مع ابن حجر صاحب كتاب بذل الماعون في فضل الطاعون الذي كتب بالتزامن مع موجة الطواعين التي ضربت مصر في العصر المملوكي، بعد أن فتك الطاعون بثلاثة من بناته، وقد جمع كتاب معجم الأدباء والأغاني العديد من أخبار العرب في مواجهتهم مع الطواعين المختلفة، وتصوير الشعراء لهم، كما هو الحال مع السيوطي صاحب كتاب "ما رواه الواعون في أخبار الطاعون" حيث تمحور موضوع كتابه في بيان كلّ ما يتعلّق بأخبار الطاعون، كحال كتاب ابن حجر العسقلاني، وقد أكّد على ذلك في قوله: «هذا جزء انتخبت فيه ما ورد في أخبار الطاعون، اختصرته من كتاب بذل الماعون لشيخ الإسلام ابن حجر، فأتيت بالمقصود، وحذفت الأسانيد وما وقع على سبيل الاطراد، والله أعلم بالمراد»⁴.

ومن ثمة فقد حفلت كتب التراجم والأدب بصفة عامة بأخبار الطواعين وأسمائها، وما كانت تخلفه في خسائر، تحصده من أرواح لاسيما من الشعراء والأدباء كما هو حال معجم الأدباء لياقوت الحموي وغيرها من الكتب التي نقلت لنا أحوال العرب في ظل وباء الطاعون، مثلما حصل مع اللغوي المشهور أبو الأسود الدؤلي الذي مات بوباء الطاعون كما ذكرت ذلك كتب التراجم والأدب المختلفة، كما ورد عن الجاحظ في كتاب ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي: «وقد كانت الطواعين تقع كثيراً، فتصير تواريخ، كطاعون عمواس وطاعون العذارى وطاعون الأشراف وغيرها. ولما مَلَكَ بنو العباس رفع الله ببركتهم الطواعين والموتان (مرض يقع في الماشية) الجارف عن بني آدم، فإنها كانت تحصد فيهم حصداً»⁵. كما نقرأ في العقد الفريد إيراد ابن عبد ربه أبياتا لشبل بن معبد البجلي:

«متى العهد بالأهل الذين تركتهم * لهم في فؤادي بالعراق نصيبُ

فما ترك الطاعون في ذي قرابة * إليه إذا حان الإياب نؤوبُ»⁶

وقد نُظمت الأشعار حتى «أكثر الناس ذكر هذا الوباء في أشعارهم»⁷، كما أورد ابن تغري بردي، وقال المقرئ: «وقد أكثر الناس من ذكره في أشعارهم، والمتأمل لحال العصر المملوكي يجد أنّ وباء الطاعون قد تفشى بصورة كبيرة عند العرب في أقاصي الشام والعراق ومصر ممتدا نحو قارتي أوروبا وآسيا في سنتي 1338م و1351م»⁸، وقد عبّر ابن تغري بردي في وصف تلك السنة قائلاً: «إنّها كثيرة الوباء، والفساد، فقد وقع في مصر والشام ما لم يقع مثله في سالف العصور، وكان يموت فيها ما بين عشرة آلاف إلى خمسة عشرة ألف نفس؛ وعُملت التوابيت والدكك لتغسيل الموتى بغير أجرة، وحُفرت الحفائر، وكانت الحفيرة يدفن فيها الثلاثون والأربعون وأكثر، وكان الموت بالطاعون»⁹.

لذا استفاض الأدباء والشعراء في تصوير المشاهد التي طبعها الوباء في الأحياء والجماد إلى جانب ما نقلته لنا كتب التراجم والأدب ومنه، فإنّ تاريخ أدب الأوبئة ضارب في القدم، ولعل ما نجده من الأدب فيما يخص الأوبئة بشكل عام والطاعون بشكل خاص تأكيد على جدلية العلاقة التي تربط المبدع بمجتمعه، فهو الذي يسمح له الظروف الأليمة التي تحوم حوله إلا أنّه يعينه على تفجير طاقته الإبداعية وتصوير معاناة الإنسان إزاء الطاعون كما صوّر لنا ابن نباتة في العصر المملوكي:

«رخصت أنفس الخلائق بالطاعون * فيها، فكل نفس بحبة»¹⁰

أو كما قاله صلاح الدين الصفدي:

«وكان الناس في غفلات أمر * فجاء طاعونهم من تحت إبط»¹¹

كما استفاض العديد من الأدباء في ثانيا عرضهم لتجارهم الأدبية والشعرية على وجه الخصوص في تصوير خوفهم الشديد إزاء الإصابة بهذا الوباء نتيجة المصير المحتوم الذي يطال المصاب به هذا من جهة، وبشاعة الهيئة التي يتم من خلالها دفن الموتى المصابين بالطاعون حيث قال البعض في انتشار طاعون القاهرة أنه «ما انتصف شوال إلا والطرق والاسواق قد امتلأت بالأموات، وما أهلّ ذو القعدة إلا والقاهرة خالية مقفرة لا يوجد بشوارعها ما، بحيث أنه يمرّ الأنسان من باب زويلة إلى باب النصر فلا يرى من يُزاحمه، لاشتغال الناس بالموتى، وعلت الأتربة على الطرقات، وتنگرت وجوه الناس، وامتلأت الأماكن بالصباح، فلا تجد بيتا إلا وفيه صحبة، ولا تمرّ بشارع إلا وترى فيه عدة أموات»¹²، وقد وصف الشاعر صاحب شرف الدين في أبيات له وصف فيها خوفه من الوباء نظرا للنهاية الأليمة والميتة السيئة التي يلقاها صاحبها:

«وإن اختُرمتُ فميتةٌ أرضى بها * إذ لم أصادفُ عيشةً تُرضيني

وإذا رأيتُ المرءَ غيرَ مُخلدٍ * فالطعنُ أشرفُ لي من الطاعون»¹³

3. رسالة النما في الوباء

يعد فن الرسائل من الفنون الأدبية التي عبّر من خلالها الأديب عن هذا «الوباء العام»¹⁴، و«الفصل الكبير»¹⁵، و«سنة الفناء»¹⁶، ولعل في مقدمة هؤلاء نجد ابن الوردي في رسالته "النما عن الوباء" وصف من خلاله الطاعون الذي حلّ بمدينة حلب، وأحوال الناس فيه، والسبل الوقائية التي ينبغي للمرء أن يلتزم بها للحدّ من انتشار هذا الوباء، لاسيما وأنه قد «كثرت الموت في الناس بأمراض الطواعين، وزاد الأموات كلّ يوم على المائة، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، وإذا وقع في أهل البيت لا يكاد يخرج منه حتى يموت أكثرهم»¹⁷.

وإذا ما بحثنا عن السبب الرئيسي لانتشار الطاعون في المناطق العربية آنذاك كالشام ومصر والعراق وغيرها، نجد أنّ أساسها كان نتيجة الحروب التي دارت بين المسلمين والمغول حيث «وقع الوباء فيمن تخلف بعد الوقعة، من شمّ روائح القتلى، وشرب الماء الممتزج بالجيف وكثرة الذباب»¹⁸، هذا فضلا عن الغلاء والمجاعات التي خلفتها هذه الحروب، والتي من شأنها أن عززت من أمر ظهور وباء الطاعون وتفشيته،

وقد ألف المؤرخ تقي الدين المقريزي كتابه "إغاثة الأمة بكشف الغمة" استفاد من خلاله في الحديث عن المصائب التي ألمت بالناس عبر التاريخ وأثارها لاسيما فيما يتعلق بأمر الغلاء والمجاعات التي خلفتها هذه المصائب، وقد قال في ذلك ابن كثير: «وفيه ترافعت الأخبار بوقوع الوباء، وارتفع السعر وفشت الأمراض، وتزايد بعد ذلك حتى كان الوباء العظيم»¹⁹.

ومن ثمة تتبدى لنا شخصية ابن الوردي المؤرخ التي تأبى إلا أن تتجلى في ثنايا رسالته، كونه إضافة إلى شخصيته الأدبية التي تتوضح في رسالة النما عن الوباء، عدّ ابن الوردي من المؤرخين العرب الذين حرصوا على نقل تاريخ الأمة الإسلامية، ويظهر ذلك في مؤلفه المشهور تنمة المختصر في أخبار البشر المعروف بتاريخ ابن الوردي، وبالتالي فإنّ هذه الازدواجية الحاصلة في شخصية ابن الوردي قد جعلت من رسالته مثالية نظرا لما تضمه في تلافيفها من الأدبية والتاريخية.

في حين نلاحظ أنّ الأمر يختلف مع ابن الوردي بحيث نجده يتصف بالدقة إزاء المعلومة التي يريد إيصالها إلى المتلقي كحديثه عن حصيلة الوفيات الناجمة عن الوباء في دمشق: «ثم سدّد الرشق إلى دمشق فترّبع وتميّد، وفتك كلّ يوم بألف أو أزيد»²⁰، ولابد من الإشارة في هذا المقام إلى الرسالة نفسها، وإلى أي جنس أدبي تنتمي؛ إذ هناك اختلاف بين الدارسين فيما يخص تصنيفها في باب الرسالة أو المقامة، فقال في ذلك المقريزي: «فقال الأديب زين الدين عمر بن الوردي من مقامة عملها»²¹، وقال السخاوي: «وعمل فيه ابن الوردي مقامة بليغة»²²، وذكر ابن شاهين الظاهري في ترجمة ابن الوردي: «وعمل مقامة في هذا الوباء، ومات عقيبها، وهي مشهورة لطيفة رقيقة»²³، في حين أنّ ابن الوردي نفسه قد عرّف بها على أساس رسالة أدبية فقال: «وعملتُ فيه رسالة سميتها النبأ عن الوباء»²⁴، ووردت في ديوانه باسم "رسالة النبأ عن الوباء"، لو أراد ابن الوردي جعلها في مصاف المقامة لكان له ذلك، كما هو الحال في حديثه عن مقاماته المختلفة، لاسيما في ظل الدقة التي يعمد إليها الأديب، كونه معروف عنه التفصيل في أمر مقاماته ورسائله.

4. الدراسة الفنية للرسالة

1.4 بداية الرسالة وخاتمتها:

لقد خصّ ابن الوردية بداية الرسالة وخاتمتها باهتمامه، نظرا لما يحوز كلّ منهما من الأهمية، ذلك أنّه يقع من إلهام حسبه كيفية وضع القارئ في جوّ الرسالة، ومضمونها، باعتبار «مطلع الكلام من الشعر والرسائل دالا على المقصود من ذلك الكلام، إنّ كان فتحا ففتحا، وإنّ كان هناء فهناء، أو كان عزاء فعزاء، وكذلك يجري الحكم في غير ذلك من المعاني»²⁵، وبالمقابل كيف يختمها بالشكل الذي يتناسب والموضوع الذي عالجه في رسالته القيمة حتى يلقي الوقع المرجو، ويحقّق الأثر الذي يأمله أديبنا، لذا فإنّ المتتبع لما ورد في مستهل الرسالة وخاتمتها يلحظ اهتمام ابن الوردية ببداية رسالته التي افتتحها بالتوكّل على الله عزّ وجل، والإيمان بقضاء الله وقدره، وكذا قدرته في تسيير شؤون الكون، فهو أنزل هذا الوباء بحكمة يجهلها الإنسان لمحدودية علمه ومعرفته التي لا يمكنها تجاوز الحدّ الذي وضعه المولى جلّ وعلا.

لذا نجده يورد في هذا السياق: «الله لي عدّة من كلّ شدّة، حسبي الله وحده أليس الله بكاف عبده، اللهم صل على سيدنا محمد وسلّم، ونجّنا بجاهه من طعنات الطاعون وسلّم»²⁶، ومن ثمة فقد حرص أديبنا على تجويد استهلاله استعطافا للجمهور ورغبة منه إلى استمالتهم، وهذا هو المطلوب، فكلمّا كان «الابتداء حسنا بديعا، ومليحا رشيقا، كان داعية إلى الاستماع لما يجيء بعده من الكلام»²⁷، نظرا لما يحوز ذلك الأخير من رشاقة وحسنا، وهذا ما نجده عند ابن الوردية على الرغم مما يحمله الموضوع من أسى وحزن، وكذا خوف من الوباء نفسه وأثاره الوخيمة ليس فقط على مدينة حلب، وإنّما ما حصده من أرواح، الأمر الذي تبدى بدوره في ختام الرسالة أيضا، حيث نجده يؤكد على عجز الإنسان عن مواجهة هذا الوباء، فقد حالت حيلة الإنسان وقوته أمام شدّة هذا الوباء وسطوته، فلا يملك الإنسان بعدها سوى الفرار إلى الله و التضرع إليه لتخليصهم من هذا الوباء حيث نجده يقول في خاتمة رسالته: «اللهم إنّنا نتشقّع إليك بأكرم الشفعاء لديك، محمد نبيّ الرحمة أنّ تكشف عنا هذه الغمّة، وأنّ تجيرنا من الوبال والتنكيل، وأنّ تعصمنا فأنت حسبنا ونعم الوكيل»²⁸.

ومنه فإنّه أمكن الجزم بأنّه قد استطاع ابن الوردية حقيقة أن يحسن استهلال رسالته، وأنّ يختمها بطريقة تحوز خلالها على انتباه القارئ، وتستقطب اهتمامه، كما

أنها توجهه إضافة إلى ذلك نحو العمل الذي ينبغي للمرء القيام به في مثل هذه الحالة التي استعصت بحسب أدينا جلّ السبل، وضاق النفس بسبب ما تراه من جزع، وخوف، وموت، وبالتالي فإنه لا حلّ حسب ابن الوردي إلا باللجوء إلى الله وطلب المعونة منه في سبيل الخلاص من هذا الوباء، لذلك عمد أدينا في رسالته على تطعيمها بشتى معاني القرآن الكريم، والافتباسات المختلفة التي يكون تأثيرها في النفس أعمق، وأشد، وهذا ما يعدّ من محاسن الكتابة التي خاض في أمورها ابن شيت القرشي في كتابه "معالم الكتابة ومغانم الإصابة": إذ لا بد للأديب في فن الرسائل أن يأخذ بعين الاعتبار حسبه بداية الرسالة وخاتمها ليصيب على إثرهما الوقع المناسب لدى المتلقي.

وهذا ما عمد إليه أدينا الذي يتجلى من خلال ما سبق اهتمامه بالمتلقي، وطريقة التلقي التي ينشد من خلالها بلوغ التأثير عن طريق العناية بفاتحة رسالته وخاتمها، فقد نشد ابن الوردي بعث الطمأنينة في النفوس، والدعوة إلى العودة لله عزّ وجلّ لتجاوز هذا الابتلاء، ذلك أنّ المرء يجد في خضم المعاناة والمرحلة العصبية التي يعيشها العزاء والراحة التي يفتقدها آنذاك، ولهذا فإنه على الرغم من أننا نلمس في نبرة أدينا من الخوف والجزع إزاء ما أحدثه الوباء من ضرر جسيم إلا أنّه نلمس في الوقت نفسه التمسك بالله وعمق الإيمان بقضاء الله عزّ وجلّ والتسليم به داعياً الناس إلى الالتزام بالطريق نفسها، ذلك أنّ الخلاص من أمر هذا الوباء يكمن من خلال ما تبثه فاتحة رسالته وخاتمها في قوة الإيمان بالله والتمسك به لزوال المحنة وانجلائها.

2.4. بنية الرسالة:

يعد السرد والوصف الأساس المتين الذي يشدّ رباط الرسالة ويعضد بنيانها، حيث عمل ابن الوردي في رسالته إلى بيان أمر هذا الوباء الذي يرجّح أنّه قادم من الصين نظراً لغرابة طعام سكانها وكثرتهم، ليذحف بعد ذلك إلى بلدان الشرق؛ إذ يقول: «طاعون روع وأمات وابتدأ خبره من الظلمات يا له من زائر من خمس عشرة سنة دائر ما صين عنه الصين ولا منع منه حصن حصين سلّ هندیًا في الهند واستند على السند وقبض بكفيّه وشبّك على بلاد أزنك وكم قصم من ظهر فيما وراء النهر»²⁹.

لقد عمد ابن الوردي خلال كلّ هذا إلى تصوير الأجواء التي عاشها الناس والخسائر التي خلفها الوباء، لاسيما الجزء المتعلق بكثرة الجثث، والجنائز التي لا تحصى، والتي كانت تقام يوميا لدرجة عجزت خلالها ما كان يسمى آنذاك بطبقة الجنائزية على

القيام بشؤون الدفن وما يترتب عنه لكثرة الجثث والموتى، وفي ذلك السياق نجده يورد معلّقا على ذلك المشهد: «ولو شاهدت كثرة نعوش وحملة الموتى وسمعت من كلّ قطر بحلب نحيبا وصوتا لوليت منهم فرارا ولأبيت فيهم فرارا فلقد كثرت فيها أرزاق الجنائزية فلا رزقوا وعاشوا بهذا الموسم وعرفوا من الحَمَلِ فلا عاشوا ولا عرقوا فهم يلهون ويلعبون ويتقاعدون على الزبون»³⁰، ومنه فقد استغلت حسب ابن الوردي هذه الطبقة الوضع الوبائي وحالة الناس الاجتماعية في تلك الفترة للريح من الناس؛ لذا نلمس في رسالة أديبنا حزنا ممزوجا بالأسى والسخط على حال المجتمع الإسلامي الحرجة في ظل وباء الطاعون، لذلك لا يتردد ابن الوردي في التضرع إلى الله تعالى ليخلص الناس من أمر هذه الجائحة: «فندستغفر الله من هوى النفوس، فهذا بعض عقابه ونعوذ برضاه من سخطه، وبمعافاته من عذابه:

قالوا: فساد الهواء يُردي * فقلتُ: يردي هوى الفسادِ

كم سيئاتٍ وكم خطايا * نادى عليكم بها المُنَادِي»³¹

كما قد أشار صاحبنا إلى مسألة مهمة لا بد من إيرادها في هذا المقام فيما يخص أمر الطاعون ألا وهو شماتة اليهود والنصارى من المسلمين معتبرين أنّ الوباء هو عقاب من الله تعالى للمسلمين، ونصرة الله عزّ وجل للمسيحية واليهودية، وتأييدا لدعوتهم؛ إذ أورد في تلك المسألة قائلا: «ومما أغضب الإسلام وأوجب الآلام أنّ أهل سبب الملاعين مسرورون لبلادنا بالطواعين حتى كأنهم منه في أمان أو عليهم ألا يقربهم ضمان أو كأنهم، إذا ظفروا ربّنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا:

سُكَّانُ سببٍ يسُرهم ما ساءنا * وكذا العوائدُ من عدوّ الدين

فالله ينقله إليهم عاجلاً * ليُمزقَ الطاغونَ بالطاعون»³²

في حين أنّ الشهادة تكون من نصيب المسلم الذي نال حظا من الصبر على الابتلاء الذي أصابه، فهو يحتسب أجره من الله تعالى كما ورد في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: «الطاعون شهادة لكل مسلم»³³، وقد أوضح ذلك ابن الوردي في رسالته قائلا: «هو للمسلمين شهادة وأجرٌ وعلى الكافرين رجزٌ ورجزٌ إذا صبر المسلم على مصيبتته، فالصبر عباده»³⁴، مستشهدا على حديث الرسول الكريم مستدلا به، حتى يثلج صدور الناس المتألمة على فقدان أحبائها، حيث نلمس في إثارته لهذه المسألة رغبة في إضفاء مسحة من الطمأنينة والراحة للقلوب المفطورة لفراق أهلها، موردا ذلك قائلا: «وقد ثبت

عن نبينا أنّ المطعون شهيد، فهذا الثبوت حكم بالشهادة، وهذه الخفية، تعجب الحنفية، فإن قال قائل: هو يعدي ويبيد، قلت بل الله يُبيد ويُعيد، فإن جادل الكاذب في دعوى العدوى وتأول، قلنا: فقد قال الصادق {الرسول صلى الله عليه وسلم} فمن أعدى الأول، ولو سلمنا فتكّه بأهل الدّاز، فهو بإرادة الفاعل المُختار، ومن فوائده، تقصير الآمال، وتحسين الأعمال، واليقظة من الغفلة، والتزوّد للرحلة»³⁵.

3.4. القيم الفنية والجمالية في رسالة النما في الوبا:

إنّ المتأمل لرسالة ابن الوردي يتبدى له من أول وهلة نزعة الوصف التي تغلب على أسلوب الرسالة، نظرا للموضوع الحساس الذي طرّقه أديبنا، ولعل هذه السمة التي تميّز بها أدباء وشعراء العصر المملوكي، ولهذا جاءت رسالة ابن الوردي مليئة بالصور البيانية والمحسنات البديعية، كما تحرى ابن الوردي انتقاء الألفاظ والعبارات التي تتناسب والموضوع المعالج من جهة، وتصوّر لنا حقيقة معاناة المجتمع الحلبي في ظل وباء الطاعون، ومن هنا تتجلى للقارئ مدى براعة أديبنا وموسوعيته التي تظهر في تلك المزاجية التي يحدثها بين الموضوع الحساس الذي يتطرق إليه، والذي يقتضي بيان حالة الأسى والحزن والإبادة الجماعية - إن صحّ التعبير- التي يقيمها الوباء، والجمالية التي ينضوي عليها أسلوبه، وقد استطاع ابن الوردي خلق هذه الثنائية والمنج بينها بطريقة تجعل القارئ لا يستشعر هذه بهذه الثنائية نظرا للانسجام الذي تمكّن الأديب من إحداثه في ثنايا الرسالة.

والمتتبع يلحظ الصناعة البديعية كانت أهم ما شغف به أدباء ذلك العصر حيث أولوا عناية كبيرة بالصور والأخيلية، والأساليب الفنية المختلفة، فراحوا يتفننون في بث صنوف البديع المختلفة في أجناسهم الأدبية، وأسرفوا في نسج الصور، ومحاولة إفراغ تجاربهم الإبداعية في القوالب البديعية بتفريعاتها المختلفة، الأمر نفسه مع ابن الوردي يكفي أن نتأمل عنوان الرسالة لنستدل على الاهتمام البالغ بالتنميق اللفظي والمعنوي، فضلا على هذا عمد ابن الوردي إلى التنوع في تصوير مشاهدته المتعلقة بالوباء بين النثر والشعر لإثراء وجهة نظره وتعميق زوايا الرؤية حتى يكون المشهد كاملا، كما هو الحال مثلا في قوله: «ومن الأقدار أن يتتبع أهل الدّاز فمتى بصق أحد منهم دما تحقّقوا كلهم عدما ثم يسكن الباصقُ الأجداتُ بعد ليلتين أو ثلاث»³⁶، ويقول بعدها شعرا:

«سألتُ بارئ النسم* في دفع طاعونِ صدم

فمن أَحَسَّ بَلْعَ دَمٍ * فَقَدْ أَحَسَّ بِالْعَدَمِ»³⁷

وبالتالي، فقد اتخذ ابن الوردي من الشعر سبيلا لتعميق الصورة الفنية في ذهن المتلقي، وتوضيحها، فقد عمل الجزء الشعري في رسالته على ترسيخ أفكارها وتعميقها، وقد تكرر الأمر في سائر أجزاء الرسالة، ومفاصلها، حيث نجده يوجز نثرا: «ومن فوائده تقصير الآمال وتحسين الأعمال و اليقظة من الغفلة والتزود للرحلة»³⁸ ، ليُفصّل بعدها أمر هذه الرحلة، وما يصاحبها من مختلف الطاعات التي لا بد للمرء القيام بها لنيل رضا الله في الدنيا، ورضوانه في الآخرة:

«فهذا يوصي بأولاده * وهذا يودع جيرانه

وهذا يهين أشغاله * وهذا يجيز أكفانه

ألا إن هذا الوبا قد سبأ * وقد كان يرسل طوفانه

فلا عاصم اليوم من أمره * سوى رحمة الله سبحانه»³⁹

4.4.1 الأساليب:

ما كان لنا أن نخوض في أدبية رسالة زين الدين دون أن نعرج على الأساليب التي وظفها أديبنا في عمله، لاسيما وأننا أمام رجل موسوعي أخذ من كل علم بطرف على حد قول ابن خلدون، لذا جاءت رسالة النما لتؤكد لنا، وأبرز ذلك نذكر:

4.4.1.1 النفحة الإسلامية

وقد برزت في ألفاظ الرسالة ومعانيها، وبخاصة في بداية الرسالة وخاتمتها كقوله: السيئات، العذاب، المسلمين، الكفار، النار، الجنة، وغيرها من الألفاظ الأخرى، والتي تصب جملها في معاني الثقة بالله وحسن الظن به، والاتكال عليه لتجاوز المحنة التي ألمت بهم، ومن أمثلة ذلك قوله: «الله لي عدة من كل شدة، حسبي الله وحده»⁴⁰ ، وقوله عن الطاعون: «ولو سلمنا فتكه بأهل الدار فهو بإرادة الفاعل المختار»⁴¹ ، لذا لقد حاول ابن الوردي من خلال رسالته أن يتوجه إلى الناس ودعوتهم إلى التمسك بالله والتضرع له لأنه الوحيد صاحب القدرة جلّ وعلا على تخليصهم من هذا الوبا، حيث نجد أديبنا يقول: «فهلّم بنا نستغيث إلى الله في رفعه فهو خير مغيث»⁴²

كما جاءت ألفاظها مستوحاة من القرآن الكريم، واقتبس بعض آياته، وكلّها تصب في مصب واحد يهدف التأثير على المتلقي، وحمله على العودة إلى الصراط المستقيم، كونه طريق الحق الذي لا بد للمرء السير عليه، لذا اتخذ من ظاهرة الاقتباس سبيلا حتى يعتبر

المرء من القصص القرآنية التي ضمّتها في رسالته كاستحضاره لقصة أصحاب الكهف لتصوير عظمة المصيبة التي حلّت بالمجتمع الحلبي، حيث قال: «لو شاهدت كثرة النعوش، وحملة الموتى...لوليت منهم فرارًا»⁴³، كما نجد تضمين قصة سيدنا نوح عليه السلام مع ابنه في شعره حين صوّر شدّة المرض:

«إنّ هذا الوباء قد سبّا * وقد كان يُرسلُ طوفانهُ

فلا عاصم اليوم من أمره * سوى رحمة الله سبحانه»⁴⁴

2.4.4. المعاني التراثية:

لقد حرص ابن الوردي على توظيف التراث في رسالته، وذلك توضيحاً للمعاني والأفكار التي عرضها، كاستحضاره لبعض الأمثال حين تحدّث عن حارم وشيزر على ضوء بيان انتشار المرض والكيفية التي ينتقل بها، كما نجد أنّه قد عمل على تضمين مطلع من معلّقة امرئ القيس في سياق حديثه دائماً عن انتشار المرض في قارة؛ إذ قال: «وأنشد في قارة قفا نيك»⁴⁵، وذكره لكتاب ذكرى حبيب لأبي العلاء المعري حين قال: «ثم أنطى أطاك بعض نصيب...من نسيانه ذكرى حبيب»⁴⁶، وهذا أمر يمكن أن نضعه تحت باب التصنّع والتكلّف، كونه السمة التي اشترك فيها جلّ الأدباء والشعراء آنذاك، لذا فإنّ حال ابن الوردي لا يختلف عن باقي مبدي عصره الذي اتخذوا من البديع تقليداً راسخاً في سننهم الإبداعية المختلفة.

3.4.4. توظيف المصطلحات العلمية

لقد عمد ابن الوردي إلى توظيف بعض المصطلحات العلمية، وهذا راجع إلى ثقافة أدينا الواسعة، والتي حاول زين الدين استعراضها في رسالته، كحال أدباء العصر المملوكي، وهذا راجع إلى تطور الحركة العلمية، الأمر الذي انعكس على الأدب، ضف إلى ذلك روح الصنعة والتكلّف الذي غلب على الأدب آنذاك، وعلى إثر ذلك راح كلّ أديب يحاول استعراض مقدرته، ويحاول أن يصبّها في عمله الأدبي، وقد أشار العديد من النقاد إلى هذه المسألة، وأثرها في الأدب؛ إذ هناك من «العلماء طائفة استغرق حبّ النحو واللغة قلبها، وملاً فكرها، فأذاها إلى التقعّر في الألفاظ، وملازمة حوشي اللغة، بحيث خاطب من لا يفهمه»⁴⁷، وأمّن أن نعدّ ابن الوردي أحد هؤلاء الذين تحدّث عنهم السبكي، حيث بالغ في استعراض معرفته ومهارته اللغوية، رغم أنّ الموضوع الذي تطرّق إليه حزين، وهي في الحقيقة مصيبة ألمّت بالسلمين عامة، ومدينة حلب بصورة خاصة.

ولهذا جاءت رسالته مليئة بالألفاظ المتكلفة كقوله: «وركب تركيب مزج بعلبك...ورمى حمص بخلل، وصرفها مع علمه أن فيها ثلاث عِللٍ»⁴⁸، كما استخدم مصطلحات الرفع والفاعل والصراف، فقال: «اللهم إنّه فاعل بأمرك، فارفع عنا الفاعل، وحاصل من عند من شئت، فاصرف عنا الحاصل»⁴⁹، كما ضمّن رسالته بعض مصطلحات الصوفية، وأخرى مذهبية كالسنة، والشيعية، كقوله: «وسكن حركة الإسكندرية، وعمل شغل الفقراء الحريرية»⁵⁰.

خاتمة:

وقد توصلنا في ختام هذه الورقة البحثية إلى جملة من النتائج، ارتأينا أن نُرتبها على النحو التالي:

● لقد استطاع ابن الوردى من خلال قطعته الأدبية الفريدة الإمام بجملة التفاصيل التي تخص وباء الطاعون في خضم العصر المملوكي، وحالة المجتمع الحلبي إزاء كلّ ذلك، متحرّياً الحقيقة لينحت لنا من جملة الحقائق التاريخية ويقدمها لنا في أسلوب أدبي راقٍ.

● لقد أكدت لنا رسالة ابن الوردى بما تحويه من الوقائع التاريخية على العلاقة الأزلية بين الأدب والمجتمع، ودور الأديب في تعزيز هذه العلاقة، فقد استطاع ابن الوردى من خلال رسالة النما في أخبار الوباء أن ينقل لنا هذه الحقائق التاريخية والحالة الاجتماعية الصعبة التي عاشتها مدينة حلب إثر هذا الوباء.

● لقد عمد ابن الوردى إلى توظيف جملة من التقنيات السردية المختلفة في سبيل بلوغ المتلقي، والإحاطة بحقيقة هذا الوباء، و مواجهة الإنسان له، وعلى هذا الأساس فقد حرص أديبنا على تدجيح رسالته بشتى التقنيات حتى تكون الصورة واضحة بالنسبة للقارئ ومقنعة إزاء رسم المعاناة والأسى الذي خيّم على الناس في مواجهتهم لهذا الوباء.

● لم يكتف أديبنا بتصوير المأساة التي حلّت بمدينة حلب فحسب وإنما عمل من خلال رسالته على توعية الناس بجلّ الاحترازمات والسبل الوقائية المختلفة انطلاقاً من التضرع والتمسك بالله وصولاً إلى الإجراءات الصحية الواجب العمل بها لتجاوز الأزمة الوبائية.

مراجع البحث وإحالاته:

- 1- هو زين الدين أبو حفص، عمر بن المظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس المعري الكندي، المعروف بابن الوردی، أديب شاعر، ومؤرخ، وفقیه شافعي، ولد بمعرة النعمان في بلاد الشام عام 691هـ/1292م، ولي القضاء بمنج، توفي بحلب السورية سنة 749هـ/1349م بواء الطاعون، من مؤلفاته: تاريخ ابن الوردی ويعرف بتممة المختصر في أخبار البشر إلى جانب ديوانه الشعري، للاستزادة ينظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1986، ص.67. أبو عبد الله شمس الدين، سير أعلام النبلاء، بيت الأفكار الدولية، لبنان، ج1، ص.272.
- 2- أبو ذؤيب الهذلي، الديوان، دار صادر، بيروت، لبنان، 2003، ص.138.
- 3- امرؤ القيس، الديوان، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، مصر، د.ت، ص.481.
- 4- جلال الدين السيوطي، ما رواه الواعون في أخبار الطاعون، تح محمد علي الباز، دار القلم، دمشق، سوريا، د.ت، ص.137.
- 5- عبد الملك بن محمد الثعالبي، كتاب ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، مصر، د.ت، ص.53.
- 6- أحمد بن عبد ربه، العقد الفريد، تح عبد المجيد الترجيني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1983، ج3، ص.230.
- 7- جمال الدين بن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب للطباعة والنشر، د.ت، ج10، ص.211.
- 8- صلاح عيسى، هوامش المقرئ، الكرمة للنشر، القاهرة، مصر، 2019، ص.147.
- 9- جمال الدين بن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مصدر سابق، ص.220.
- 10- ابن نباتة المصري، الديوان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د.ت، ص.67.
- 11- صلاح الدين الصفدي، الديوان، دار صادر، القاهرة، مصر، د.ت، ص.147.
- 12- المصدر نفسه، ص.162.
- 13- صاحب شرف الدين الأنصاري، الديوان، تح عمر موسى باشا، مجمع اللغة العربية، دمشق، سوريا، د.ت، ص.381.
- 14- ابن الوردی، نيل الأمل في ذيل الدول، تح عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 2002، ج1، ص.177.
- 15- جمال الدين بن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مصدر سابق، ج10، ص.166.
- 16- المصدر نفسه، ج10، ص.166.
- 17- أبو الفداء اسماعيل ابن كثير، البداية والنهاية، تح محي الدين دين مستو، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، 2015، ج14، ص.237.
- 18- المصدر نفسه، ص.238.
- 19- ابن الوردی، نيل الأمل في ذيل الدول، مصدر سابق، ص.171.

- 20- ابن الوردي، الديوان، تح أحمد فوزي لهيب، دار القلم، الكويت، 1986، ص. 88.
- 21- تقي الدين المقرئ، السلوك لمعرفة دول الملوك، مصدر سابق، ص. 90.
- 22- شمس الدين السخاوي، وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، تح بشار عواد معروف، عصام فارس الحرساني، أحمد الخطيبي، مؤسسة الرسالة، د.ت، ص. 35.
- 23- ابن الوردي، نيل الأمل في ذيل الدول، مصدر سابق، ج 1، ص. 178.
- 24- ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت، ج 2، ص. 339.
- 25- ضياء الدين ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، مصر، د.ت، ص. 145.
- 26- ابن الوردي، الديوان، مصدر سابق، ص. 86.
- 27- أبو هلال العسكري، الصناعتين، تح علي محمد الجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، د.ت، ص. 453.
- 28- ابن الوردي، الديوان، مصدر سابق، ص. 94.
- 29- المصدر نفسه، ص. 86.
- 30- المصدر نفسه، ص. 83.
- 31- المصدر نفسه، ص. 84.
- 32- المصدر نفسه، ص. 85.
- 33- ينظر: بدر الدين بن محمد العيني، عمدة القارئ لشرح صحيح البخاري، تح عبد الله محمود محمد عمر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2001، ج 10، ص. 182.
- 34- ابن الوردي، الديوان، مصدر سابق، ص. 85.
- 35- المصدر نفسه، ص. 89.
- 36- المصدر نفسه، ص. 89.
- 37- المصدر نفسه، ص. 90.
- 38- المصدر نفسه، ص. 91.
- 39- المصدر نفسه، ص. 92.
- 40- المصدر نفسه، ص. 80.
- 41- المصدر نفسه، ص. 81.
- 42- المصدر نفسه، ص. 82.
- 43- المصدر نفسه، ص. 83.
- 44- المصدر نفسه، ص. 84.
- 45- المصدر نفسه، ص. 85.
- 46- المصدر نفسه، ص. 86.
- 47- المصدر نفسه، ص. 87.
- 48- المصدر نفسه، ص. 88.

49- المصدر نفسه، ص.88.

50- المصدر نفسه، ص.89.

قائمة المصادر والمراجع

1. ابن الوردي، الديوان، تح أحمد فوزي لهيب، دار القلم، الكويت، ط1، 1986.
2. ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت.
3. ابن الوردي، نيل الأمل في ذيل الدول، تح عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 2002.
4. ابن نباتة المصري، الديوان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت.
5. أبو الفداء اسماعيل ابن كثير، البداية والنهاية، تح محي الدين دين مستو، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، د.ط، 2015.
6. أبو ذؤيب الهذلي، الديوان، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 2003.
7. أبو عبد الله شمس الدين، سير أعلام النبلاء، بيت الأفكار الدولية، لبنان، د.ط، د.ت.
8. أبو هلال العسكري، الصناعتين، تح علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل ابراهيم، دار الفكر العربي، د.ط،
9. أحمد بن عبد ربه، العقد الفريد، تح عبد المجيد الترجيني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1983.
10. امرؤ القيس، الديوان، تح محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط4، د.ت.
11. بدر الدين بن محمد العيني، عمدة القارئ لشرح صحيح البخاري، تح عبد الله محمود محمد عمر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2001.
12. جلال الدين السيوطي، ما رواه الواعون في أخبار الطاعون، تح محمد علي الباز، دار القلم، دمشق، سوريا، د.ط، د.ت.
13. جمال الدين بن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب للطباعة والنشر، د.ط،
14. خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط7، 1986.
15. شمس الدين السخاوي، وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، تح بشار عواد معروف، عصام فارس الحمرستاني، أحمد الخطيبي، مؤسسة الرسالة، د.ط، د.ت.
17. صاحب شرف الدين الأنصاري، الديوان، تح عمر موسى باشا، مجمع اللغة العربية، دمشق، سوريا، د.ط،
18. صلاح الدين الصفدي، الديوان، دار صادر، القاهرة، مصر، د.ط، د.ت.
19. صلاح عيسى، هوامش المقرئ، الكرمة للنشر، القاهرة، مصر، ط1، 2019.
20. ضياء الدين ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، مصر، د.ط، د.ت.
21. عبد الملك بن محمد الثعالبي، كتاب ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تح محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف، القاهرة، مصر، د.ط، د.ت.